٥ / ميلاد غير قانونى :
آنا جونسون وتكاثر الأجساد العنصرية

- آنا جونسون : «السيدة السوداء»
- الأمومة البديلة والأمومة بعد اليأس
- معركة خاسرة
- رؤية تاريخية

obeikandl.com

obeikandl.com

آنا جونسون : السيدة السوداء

فى ١٩ سبتمبر ١٩٩٠ وضعت آنا جونسون السيدة السوداء وليداً أبيض فى سانت آنا فى كاليفورنيا . وبعد يومين وافقت المحكمة على منح حضانته لأبويه البيولوچيين مارك وكريستينا كالفرت ؛ لتتجنب وضعه فى ملجأ (Foster home) ، وكانت هذه السيدة قد عقدت مع أسرة كالفرت اتفاقاً لتحمل طفل الأنابيب الخاص بهما نظير عشرة آلاف دولار ، ووافقت على غرس الجنين بداخلها على الرغم من أنه لا يحمل أى چينات منها . وفى الشهور الأخيرة من الحمل شعرت بارتباطها بالجنين ، وطالبت بفسخ العقد الذى سبق أن وقعته وتقاضت عنه مبلغاً من النقود . وعللت طلبها بأنها تشعر تجاهه بالأمومة أكثر من والديه الحقيقيين ، مدعمة وجهة نظرها هذه بأنهما بعيدان عنه ولا يهتمان به الآن ، فما الذى سيصنعانه بعد قدومه ، ونشرت قصتها مجلة تايمز فى لوس أنجلوس .

وواجه الوالدان ذلك الموقف بثبات وأكدا رعايتهما للسيدة جونسون بأكثر مما أُتفق عليه فى العقد ، وأنهما أودّيا مادياً ونفسياً بهذا البديل التكنولوچى . فقد طالبتهما بسداد مبالغ مادية فى أوقات محددة ، وهددتهما أن بإمكانها الاحتفاظ بالوليد إذا لم ينفذا مطالبها . ولذلك فمطالبتها برعاية الطفل بعد ولادته تعبر عن الطمع وليست بدافع عاطفة الأمومة .

وظهرت السيدة جونسون بصورة متكررة لتحكى قصتها فى وسائل الإعلام ، ولكن السلوك الذى سلكته فى حياتها المادية كان مدعاة للتساؤل ، فقد زادت مشترياتها الشهرية عن خمسة آلاف دولار شهرياً ، ولم تستطع إثبات مصادر دخلها لمدة عشرة شهور عام ١٩٨٩ . وهكذا اتهمت آنا جونسون بالنصب والاحتيال . ولكن محاميها دافع عنها قائلاً إن تلك ليست جريمة العصر ، وأن المقاضاة فى هذه القضية تماثل حالات انتشرت فى عهد ريجان وبوش ، وارتبطت بالأذهان ، ولهذا سميت جريمة العصر فى هذا العقد . فقد كانت الأم السوداء غير المتزوجة تمثل رمزاً لتفشى التفكك والانحلال فى الأسر السوداء ، وفى أمريكا كلها .

وقد ارتبطت هذه القضية عند كتابتها فى الصحف أو تناولها إعلامياً باسم السيدة السوداء ، فوضعتها تلك المقالات فى طبقة اجتماعية مختلفة ، يدل اسمها على مفاهيم ومعان موضوعة فى ذلك الإطار الرمزى والتاريخى ؛ مما جعل المعلومات الجديرة بالتصديق فى قضيتها مبعثاً للشك . ولهذا كانت قصتها تسبقها ، ومعها تصور مسبق لها كسيدة عاشت فى المجتمع الأسود بكل سلبياته ، وما يصاحبه من انخفاض فى مستوى المعيشة واضطرابات نفسية واجتماعية ، مع تدهور المفهوم الخلقى فى هذه البيئة وخاصة مع الإهمال التربوى والصحى الذى يلقاه الصغار .

وعلى الرغم من أن تلك الملابسات كلها لا تدخل فى صميم القضية المرفوعة

من آنا جونسون لحضانة وليدها ، إلا أن هذه الدعاية نجحت فى أن تجعلها مضطربة ولم تعد بقادرة على حسن الإدراك والتقدير لما تشعر به من روابط تجاه وليدها . فقد دخلت تلك السيدة وسائل الإعلام كصورة رسمت مبدئياً وينظر إليها من زاوية عنصرية ، وأحيطت بهالة من الأفكار والتصورات والمخاوف تجـــاه « السيدة السوداء » و «الأسرة السوداء» ، وما تعيشه من معاناة اقتصادية وما تعتنقه من مفاهيم ثقافية . فقدمت بالصورة التى تعنى أنها استطاعت خداع آل كالفرت ، مستغلة شوقهم للإنجاب مستخدمة فى ذلك طريقة حسابية بحتة للربح ، ولم يكن الدافع لرفع قضية الحضانة هو تغير مشاعرها ، وإحساسها الصادق بالأمومة .

الأمومة البديلة والأمومة بعد اليأس

وكما حدث مع الطفلة «م» ، بدأت المحكمة تحاول إيضاح وتثبيت بعض المفاهيم للأمومة والطفولة لإيجاد دلالة للعلاقات المتولدة من انتشار أساليب التكاثر الحديثة ، وبدأت فى تحديد أولاً : ما إذا كان استخدام وسيلة الأم البديلة يعد نوعاً من بيع الأطفال – وهذا يجعله غير قانونى – وثانياً : ما إذا كانت الأم البديلة لها حقوق حيال الطفل الذى حملته وولدته ، ولكنها لا تحمل علاقة چينية به ، وهل هذا الاختلاف الوراثى وحده الذى يمثل عقبة فى ذلك ؟ .

وحقوق ما قبل الميلاد لها جذور قانونية وطبية وشعبية ، فهناك قانون خاص بالأبوة والتبنى صدر عام ١٩٧٥ ، ولم تكن وسائل التكاثر الحديثة مستخدمة وقت صدوره فى كاليفورنيا ، وقد اعتبر هذا القانون الأم التى ولدت الطفل مثل الأم الطبيعية .. ثم جاء القانون الذى يحدد سياسة استخدام الأمهات البدائل ، والصادر من الكلية الأمريكية لأطباء التوليد وأمراض النساء ، ليعامل رابطة الولادة كرابطة أمومة طبيعية . وسادت المجادلات وظهرت مقالات عديدة ودارت مناقشات كثيرة حول مفهوم الأمومة .. وغالباً ما كانت تتطرق هذه الآراء لتشمل قضية الإجهاض ومفهوم الأمومة بالنسبة لمن تقدم عليه .

وفى الأسبوع نفسه الذى أعلن القاضى حكم المحكمة فى قضية آنا جونسون ، ظهرت مقالة فى مجلة نيوإنجلند الطبية ، أعلن فيها الباحثون أنه يمكن بوسائل حديثة أن تستعيد السيدة التى بلغت سن اليأس ساعتها البيولوچية ، وتصبح أماً وتحقق أنوثتها ، لأن الأمومة تعتبر جائزة الأنوثة . ولكن هؤلاء السيدات سيخضن تجربة مماثلة للأم البديلة ، ويحملن أطفالاً ليس لهن علاقة بيولوچية بهم ... وهكذا تكون قصة الأمومة هنا من خلال سعادتهن بخوض التجربة والإحساس بالطفل أثناء حمله . أى إن الأمومة فى هذه الحالة لا تعنى الارتباط الوراثى ، وإنما تتشكل الأمومة أثناء الحمل باعتبار أن تواجد الأم مع جنينها يخلق عاطفة أمومة طبيعية تجاهه ، وهى فى سن اليأس . وذلك لا يختلف عن فكرة الأم البديلة ، ومدى ارتباطها بوليدها

وشعورها تجاهه بالعاطفة الأمومية الطبيعية ، وافتقادها لتلك العاطفة ، هو الذى يعد انحرافاً للطبيعة .

ولكن من وجهة نظر القاضى – فى قضية آنا جونسون – أن السيدة ارتبطت بعقد لم تجبر على توقيعه ، ولم تخدع فى فحواه ، ووقعت مع آل كالفرت عقداً تجارياً يحدد علاقتها بالطفل الذى وافقت على إنجابه ، وهى تعلم تماماً أنه عند ولادته سيكون لتلك الأسرة ، واستند أيضاً القاضى فى حكمه إلى شهادة أحد أطباء الأطفال النفسيين ، الذى حدد أن الارتباط بين الأم وجنينها أثناء الحمل هو ارتباط اجتماعى وليس بيولوچياً أو طبيعياً . وبالرغم من ذلك هناك روابط أمومة ممكن حدوثها .. وتلك التى تحدث – فقط – من خلال رابطة أسرية كاملة ، من أم متزوجة ، ودون ذلك تكون تلك الرابطة – فى رأيه – نوعاً من المصادفات .

وقد اعتبرت المحكمة السيدة جونسون غير محقة فى طلب حضانة وليدها ، وأنها قد أجرمت بطلبها هذا ، ولم ترتبط إطلاقاً بهذا الطفل الذى حملته وولدته ، فالولادة لا تعنى الأمومة الحقيقية . وشبهت المحكمة علاقتها بالطفل كعلاقة أب بإبنه المتبنى ؛ فهى توفر له الرعاية والحماية والغذاء طوال فترة الحمل ، تلك الفترة التى لم تكن فيها أمه الطبيعية – كريستينا كالفرت – قادرة على العناية به . والذى يتبنى طفلاً لابد أن يأخذ فى اعتباره أنه قد يحدث فى يوم ما أن يتمكن أبواه من استعادته ، عندما يصبحان قادرين على رعايته والعناية به .

معركة خاسرة

وبعد اقتناع المحكمة بعدم أحقية السيدة جونسون فى طفلها ، بدأت فى تعريف هذا الطفل ، فهو يمتلك هويته الفسيولوچية والنفسية الخاصة به ، وصفاته الچينية محددة – تلك التى ترتبط بأبويه كالفرت – بصورة فطرية . وإذا تشكك الطفل كريستوفر فى تلك الهوية ، فقد يتعرض للخطر أثناء نموه لعدم إحساسه بذاتيته ، وقد يجبره ذلك للبحث عن جذوره العميقة ، وأسرته الأصلية ، والمكان الأصلى الذى ينتمى إليه . ويرى القاضى أن الصلة الوراثية – فقط – هى التى تحسم هذه القضية، ووصف الزوجين كالفرت بأنهما فكرا فى تحقيق أغلى أمنياتهما للامتلاك ، متمثلة فى ميراثهما الچينى الذى حينما ينمو يكون الجنين ، ولكنهما لا يملكان مكانا مناسباً ينمو فيه ، ولهذا اتفقا مع الأم البديلة . وبناء على ذلك كان حكم القاضى أن تؤول كفالة الطفل الذى ينتمى إليهما چيناته إليهما .. وهكذا يقتصر دور آنا جونسون على أنها الحاملة البديلة ، وهكذا أعلنت المحكمة تكوين أسرة جديدة «طبيعية» ، وقضت بألا يكون للأم البديلة أى اتصال لاحق بالطفل .

ومازال السؤال حائراً : لماذا خاضت آنا جونسون تلك المعركة ؟ وقد تكون هى الوحيدة التى تملك الإجابة ، فقد صاحبت هذه القضية ضجة إعلامية ، تؤكد أن

وراء مطالبتها بحضانة الطفل سبباً عنصرياً رئيسياً يحركها ، فطالما أفصحت تلك السيدة عن حلمها فى إنجاب طفل أبيض ، ووافقت على حمله سعياً لتحقيق أمومتها . ولكن الانتشار الإعلامى الذى صاحب هذه القضية – مع الآراء المتعددة التى دارت فى المناقشات أثناء بحثها ، والتحدث المستفيض عن العنصرية – لعب دوراً مؤثراً فى توجيه الحكم فيها ، فالقاضى ووسائل الإعلام وآل كالفرت جعلوا النظرة إليها مختلفة وقللوا من شأن عواطفها تجاه طفلها ، حتى عن تلك الأم التى تبحث عن التبنى . فظهرت فى صورة المستغلة الطفيلية . هذا على الرغم من أن أسرة كالفرت كانت مختلطة الجنس ، ولونهم يميل إلى أن يكون داكناً – وليس بنياً – لأن كريستينا فليبينية ولم تكن بيضاء تماماً . وقد دفع كالفرت وزوجته لآنا جونسون ١,٥٤ دولاراً فى الساعة – وهذا أقل من أدنى مرتب – ليشبعا رغبتهما فى الأبوة ، وتحمل آنا نطفتهما . ولكن ما الذى جعل المحكمة – ومعها الرأى العام – يبنون الثقة فى صحة قراءة أفكار هذه السيدة واليقين برغبتها الحقيقية ؟ على الرغم من أنها أنكرت هذه الدعاوى والأفكار ، ورفضت الحديث عن هذه الموضوعات. وما الذى أودع اليقين فى أن معركتها لم يصاحبها تغيير فى جوهرها أو تفكيرها؟ وفى تلك الأقصوصة : من الذى كان يعمل كآلة؟ ولمن؟

رؤية تاريخية

عكست تلك القضية رؤية المجتمع للفقر الأخلاقى والتدنى الاقتصادى وكيفية التعامل التاريخى مع أجساد السيدات السوداوات ، وحياتهن منذ عصر العبودية ، والنظرة الدائمة إليهن بأن إحساس الأمومة ينقصهن ، على الرغم من خصوبتهم ، ثم الحديث عن نسبة المواليد غير القانونية ، ونسبة انتشار الإيدز ، والرق فى شوارع المدينة الداخلية حيث يتواجدن ، وإجبار المحكمة لبعضهن حتى يزرعن وسائل منع الحمل حفاظاً على الأطفال الذين يلدنهم ثم يتعرضون للضياع بسبب غياب الأسرة.. تلك العوامل العنصرية التى ظهرت فى قضية آنا جونسون ، اعتبرت مجرد ظاهرة ، ولكن اللون له مغزاة الاجتماعى والتاريخى ، الذى ظهر تأثيره فى هذه القضية ، وفى إعادة تكوين العلاقات الأسرية لها .

ولكن هل كانت ستبدو هذه القضية مختلفة ، لو أن الأم البديلة بيضاء ؟ وهل ستختلف نظرة المحكمة لهذه السيدة المنحدرة من هذه السلالة ؟ وحكمها على مستواها الاجتماعى وأسلوبها فى الابتزاز ؟ وهل سيستبعد منطق الاستغلال المادى ، وتعاد صياغة الخلفية الحقيقية للإدعاء ؟ وهل سينظر للقضية بعين الاعتبار لفائدة الطفل وحمايته ؟ تلك الاستفسارات أثيرت على الرغم من أن الحكم الصادر من المحكمة قد لا يتغير ، لأن التحدى الذى واجه المحكمة فى تلك القضية هو بقاء بعض العلاقات ، التى نتجت من تلك التكنولوچيا محددة ، وإرساء بعض المفاهيم ؛

لأن الأمهات البدائل أجبرن المجتمع على تقبل مفاهيم غير تقليدية ، فعلى الرغم من أن هؤلاء الأمهات يمتلكن بعض الحقوق تجاه من ولدوهن ، إلا أن مشاركتهن أقل فى تحمل مسئوليات التنشئة والرعاية . وهكذا تمت صياغة القرار كى تحتفظ الأسرة بصورتها التى تنبع من جذور بيولوچية متماثلة ، ويشتركون معاً فى صلات القرابة والنسب ، ويقودها الأب والأم ، وبذلك لا يكون منبع قوة العلاقة الأسرية مجرد إنجاب الطفل ، حيث إن طرق التناسل الحديثة تزداد انتشاراً وستفرض نفسها حتماً .

وهكذا كان الهدف من الحكم الصادر فى قضية آنا جونسون ، هو تأكيد الحفاظ على كينونة الأسرة الطبيعية ، على الرغم مما تواجهه من بدائل غير طبيعية ، أوجدتها التكنولوچيا الحديثة ، والإقبال على ممارسة الأشكال الجديدة المتاحة للإنجاب من خلال استخدامها . وقد أوجدت القضايا التى نجمت من جرائها انعكاساً ، لما قد يوجد من صور طفيلية أو جوانب عنصرية . ولكن ظهورها فى هذا الوقت يعطى فرصة لتتبعها ومعرفة جذورها ، ثم إماطة اللثام عن كيفية تفاديها لبدء سياسة جديدة تجاهها .